

إسهامات شعراء صكتو خارج المنطقة الشيخ محمد تکر

الباغوي نموذجاً

إعداد:

د. عمر علي حطيجه

قسم اللغة العربية، كلية التربية لولاية جفاوا، غمل

الملخص

تعدّ منطقة صكتو من أرقى مناطق شمال نيجيريا علمًا وثقافةً، لجملة ما أنبتت من العلماء والأدباء منذ الجهاد الإسلامي بصكتو إلى اليوم، وانتشروا في المناطق المجاورة لبثّ ما رزقهم الله من العلم والأدب، فالشاعر محمد تکر الباغوي من أولئك الأدباء الذين وصلوا إلى مناطق برنو لأحد الأغراض المذكورة. لهذا قام الباحث لدراسة مساهماته الأدبية في هذه المنطقة عامة وقصائده في مدح الشيخ أي الفتح اليرواوي خاصة، متناولاً شخصية الشاعر وعوامل تكوينه الأدبي، وإسهامه في الأعمال الفنية وما تناوله من الأغراض الشعرية في المنطقة، ولاحظ الباحث أن قصائده لوحة فنية ذاخرة تعبّر عن منزلة أدباء منطقة صكتو خاصة والأدب العربي النيجيري عامة.

المقدمة

لقد احتلّ الأدب العربي النيجيري أرقى منازلها في عصر الفوديين نظراً إلى كثافة الرسائل والقصائد المتداولة بين الأمراء والعلماء والحكام، فكانت أكثرها تعالج قضايا دينية وسياسية واجتماعية لمناطق التي تحكمها. وفي القرن العشرين الميلادي وما بعده اتسع مناهل الأدب العربي النيجيري شعراً ونثراً، حيث ظهر نخبة من الأدباء بنظم الشعر وتأليف الكتب والترجمة في ميادين أدبية مختلفة، وذلك لما اغترفوا من الثقافات في مناهلها المتباينة، فكان الشاعر محمد تکر الباغوي ممن أدلو بدلائهم في هذا الحوض، فقد قرض جملة من القصائد في أغراض

متباينة والتي تعبر عن تبحره في الشعر العربي وتمكنه في اللغة العربية. وتجري المقالة على نقاط التالية:

- المقدمة.
- حياة الشاعر محمد تکر وعوامل تكوينه الأدبي.
- مكانته الأدبية في منطقة برنو.
- دوره الشعري وأغراضه الشعرية.
- الخاتمة والهوامش مع المراجع.

التعريف بالشاعر

تعريفه ونسبه: هو الشيخ محمد تکر بن هارون الباغوي المشتهر بـ "مالم تکر"، أما والده فهو الشيخ هارون بن محمد الفقيه الصوفي، قدم من بلاد عُورٍ إلى قرية مَشَايَا فمكث فيها بعض السنوات، ثم انتقل منها إلى قرية دُورُنْ بَاغَا (DORON BAGGA)، واستقر بها إلى أن وافته المنية رحمة الله عليه سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، فلما طاب له المقام أنشأ في منزله حلقة علمية يقصد إليها طلاب العلم، كما يحج إليه الناس للإفتاء والتفقه في الدين. ويستشهد بذلك في أرجوزته قائلاً:-

وَأَبُوهُ هَارُونُ إِمَامُ الْأَدْبَا * مِنْ صَكْتُو جَاءَ لِغُورٍ نَسْبًا^٢

مولده ونشأته: ولد الشاعر محمد تکر الباغوي يوم الأربعاء ٧ من شهر ربيع الأول سنة ١٣٨١هـ الموافق ١٩٦٢م، في بيت تضاء قاعته بالعلم، بقرية مَشَايَا الواقعة في حكومة محلية عُشْوَا، ولاية يوبي حالياً، نشأ الباغوي تحت رعاية وتربية والديه الكريمين في صيانة وعفاف وتقى، وعلى سيرة طيبة وحالة حميدة من طلب العلم والفتنة والحفظ. ويقول في الأرجوزة التي قرضها عن مولده:-

سَبْعُ رَبِيعٍ أَوْلٍ قَدْ وُلِدَ * تُكْرُ لِهَارُونَ فَتَى مُحَمَّدَا

وَسَطَ رَبِيعٍ فِي أَنْسَابِ الْمَطْرِ * بُورِكَ فِيهِ قَدْ أَتَى كَالْبَدْرِ؛

ولما بدأت حركة بُوكُو حَرَامٍ في ولاية بَرُنُو وضواحيها، وعظمت اعتدائها على سكان المنطقة، انتقل الباغوي من دورن باغا إلى "مدينة كَلْغُو" في ولاية كَيِّي، واستقر بها مع جماعة من طلابه.

تعلّمه: شاء له القدر أن أخذ العلوم من أربابها، وأتى البيوت من أبوابها، فقرأ القرآن على والده وهو لم يناهز العاشرة من عمره، واستظل بدوحته يغترف من أغدائها الجارية مبادئ العلوم الإسلامية حسب المعتاد في بيوت كثير من العلماء في بلاد الهوسا، فلما ناهز عشر سنوات أرسل به والده إلى بعض البلاد المجاورة ليحفظ القرآن، فقرأ القرآن على يد كبار العلماء حتى تمّ له الحفظ والإتقان على يد معلمه الحاج إسحاق، وأخيراً عاد الشاعر الباغوي إلى دُونُ بَاغَا سنة ١٣٩٨-١٩٧٧ م. فقرأ على والده، الأخضرى لعبد الرحمن الأخضرى، والعشماوي للشيخ عبد اللطيف بن شرف الدين العشماوي، والقرطبي (الأرجوزة) ومقدمة العزية للعلامة أبي الحسن علي الشاذلي، والرسالة لأبي زيد القيرواني، كما انهل منه كتب المديح منها: الهمزية للإمام البوصيري، والبردة للبوصيري أيضاً، والعشرينيات لألفازازي، والوترية لمجد الدين محمد البغدادى والشعراء.

فلما استوى على سوقه بادر في تحصيل العلوم الإسلامية، فهضم كتباً دينية جمّة أعانته في توسيع نطاق فكرته، فشَدَّ الرحال إلى بعض المراكز العلمية المجاورة، فمكث في زاربا واستفاد من علمائها وعلى الطليعة: مالم عثمان ابن مالم نَيِّيَا ومالم بِلَا كُسَقَا، ومالم زكريا ومالم ثاني بن الشيخ عبد القادر المشهور بـ "أكزمي" حيث اغترف منهم علوماً جمّة وفنوناً عدة، منها: الكتب الفقيّة والسنة النبوية وبعض الكتب اللغوية. كما استعان ببعض علماء كانوا وارتوى من معينهم علوماً كثيرة، فقرأ عليهم كتباً فقهية وأدبية ولغوية، ثم استفاد بالشيخ أحمد أبي الفتح اليرواوي في علوم التفسير. ولما اشتدت الأحوال في المنطقة وعظمت اعتدات جماعة بوكو حرام على برنو وضواحيها انتقل الباغوي إلى موطن والديه وأجداده "مدينة كلغو" في ولاية كَيِّي، واستقرّ بها مع جماعة من تلاميذه. وما زال يقرض القريض ويرشد المريء ويخدم القرآن الكريم.

عوامل تكوينه الأدبي: هناك عوامل عدة التي لعبت دوراً فعالاً في تكوين شاعرية الشاعر أو الأديب منها ما يلي:

البيئة: ينظر إلى المحيط الاجتماعي على أنه عامل فعّال في التأثير على الشخصية الأدبية ومنتوجاتها أياً كانت هذه الشخصية، لأن المجتمع منبع التجربة الإنسانية التي يعمل الأديب في توضيحها وتوصيلها إلى إخوانه من بني البشر.^٧ فالمحيط الاجتماعي الذي عاش فيه الشاعر هو بلاد كانم-برنو التي كانت مركزاً إسلامياً هاماً، ومأوى للعلماء والزوّار من مختلف مناطق غرب إفريقيا. وقد احتلت كانم-برنو مكانة عالية في التعاليم الإسلامية حيث تُوفد الطلاب إلى الأزهر الشريف طلباً للعلم والمعرفة منذ أن وطأ الإسلام قدميه في نيجيريا. ومن الجدير بالذكر، أن المنطقة مستوطن الأوائل الذين أنبتت بهم *إِنْعَزَّرَعْمُو وَكُوَكَاوَا*. حيث أسسوا الكتاتيب والدهاليز والزوايا العلمية يبتّ فيها العلوم الدينية والثقافة العربية، كما تأوي إليها كتيبة لطلاب العلم من البلدان المجاورة كمنطقة: كُنُو، وكَشِينَا، وبُوشِي، وصُكُتُو، وزَنْقَرَا، وأَدَمَاوَا.^٨

المزاج: إن الإنسان ابن بيئته وبطبيعتها يتعرّع وثقافتها يتروى، وبتعاليمها يهتدي، وعلى هذا سهّل الله للباغوي سبيل الممارسة العلمية في حلقة والده، حيث يحتفل إليها طلاب العلم في مختلف مراحلهم مغترفين من حوض والده أفانين العلوم المختلفة، فأثار له هذا المزاج العكوف والانتظام على التحصيل، كما ورث له هذا المزاج الانتقال إلى دهاليز كبار العلماء بكتبه الحافلة ينهل منها العلوم بين أقرانه، ويهضم كل ما ألقى من درس أو كتاب، ولا يترك كتاباً يدرس في حلقة من الحلقات إلا افتقد ضالته واكتسبها.

الثقافة: نشأ الشاعر الباغوي في أسرة عالمة ومتدينة ذات جذور عميقة في الثقافة الإسلامية والعربية، فإذا كانت الثقافة تؤثر في الإنسان مادياً ومعنوياً، فلا غرابة أن يتشكل للباغوي وعي ديني ثاقب، وفيض علمي شاسع، وإرشاد إلهي خالص، لأن القرآن الكريم منهله الأول والسنة المطهرة غدقه الثاني ثم الكتب الفقهية واللغوية معيّنُهُ الثالث.

إنطلاقاً من ذكاء الباغوي وانهماكه في القراءة انهماكاً استطاع هضم كتب دينية كثيرة وقراءة كتب لغوية جمّة، ويحقق ذلك كثرة تنقلاته بين الدهاليز في مدن مختلفة، وكثلة الكتب التي قرأها على مشايخه الأجلاء، كما قادت فكرته العميقة، وإطلاعه الدؤوب، وحرصه الشديد على قراءة الكتب الأدبية، كالمقامات الحريري والداووين الشعرية كمختار الشعر الجاهلي، وما يتعلق

بالمديح النبوي كديوان الإمام البوصيري والعشرينيات لعبد الرحمن الفازازي ودواوين الشيخ إبراهيم الكولخي. وانطلاقاً مما ذكر فإن القارئ لقصائد الباغوي يجدها مكتظة بأنواع ثقافته المختلفة ووعيه وذخيرته الجمّة، يحشد فيها منهجه وعقيدته ونزعتة الصوفية، هذا، فيمكن القول بأن هذه العوامل المجتمعة كافية في صنع هذا الشاعر، وإخراجه فحلاً يستحق أن يحتفل به، وأن يهئ قومه به والأمة الإسلامية جمعاء.

مكانته الأدبية في منطقة ميدغري

إنه من الطبيعي أن يكون لكل عالم مشهور ثروة علمية يستفاد بها سواء منشورة أو منظومة أو كلمها، إلا أن الشاعر الباغوي كرس جهده في نظم القصائد، ولم يصادف الباحث بشيء من منشوراته، ولعل السبب في ذلك عكوفه على الأشعار العربية والقصائد المديحية في أطوار مراحلها التعليمية، وكونها شغله الشاغل في حله وترحاله. أضف إلى ذلك ما يتمتع به من الهفاوة والتكريم من قبل الشيخ أبي الفتح وقت الانشاد.

ولقد حفلت مكتبة الأديب الباغوي بمخطوطات عربية جمّة، حيث استخدم قلمه السيال في سرد جملة من القصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وشيخه (الشيخ أحمد أبي الفتح اليرواوي)، كما استوظف نفس الآلة في المرثي وغير ذلك. وقد يعتبر الباغوي قرض القصائد مسرحاً لتسجيل تجاربه وأفكاره وعقيدته وما تحتضنه ضميره من أفراح وآلام. ففي خلال هذه الحقبة الزمنية استطاع الشاعر أن ينشأ مؤلفات جمّة وقيّمة، ومتباينة الأغراض. هذا، فلا يسع المجال للباحث أن يورد جميع إنتاجات الشاعر، إلا أنه يضيف ضوءاً على أن جلّ قصائده قرضها في مدح الشيخ أحمد أبي الفتح اليرواوي، حيث يربو عددها على ثمان وعشرين قصيدة، في أبيات تناهز ألف وثمانمائة (١٧٠٠)، حتى كان يلقب بحسان الحضرة الفتحية. ويقول في ذلك:

وَأَصْبَحْتُ حَسَانَ أَعْتَابٍ مَنْ * لَهُ الْفَتْحُ فَصَلَّتْ قَوْلِي فُصُولًا
وَأَمَدَحُ ذَا الْفَتْحِ مَدْحًا كَمَا * غَدَا الْكَعْبُ يَمْدَحُ طَهَ الرَّسُولًا ١٠

ويمكن حصر بعض هذه المنظومات في الآتي:-

قصيدة "فتح العلام": وهي جملة من القصائد تقع في ثلاثمائة واثنين وثلاثين (٣٣٢) بيتاً، بتاريخ (١٢/١٠/٢٠١١م). وتحتوي على تسعة قصائد من بحور متباينة، وأغراض عدّة. منها "هائية

الثناء في مدح المصطفى"، وتقع في ٢٠ بيتاً، مدح فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بصفاته الخُلقية والخَلقية مع ذكر معجزاته وإرهاصاته. وتليها "وسائل القدوم لحضرة القطب المختوم" والتي تنطوي على ١٢٩ بيتاً، مدح فيها الشيخ أبو العباس أحمد التجاني، كما تناول فيها فضل طريقته ومكانة من التزم بأورادها، ثم توسّل بمشايخ طريقته الكرام. ثم قصيدته "رسالة الأحاب في مدح أبو الفتوحات" والتي تقع في ١٠٨ بيتاً، مدح فيها الشيخ أبي الفتح اليرواوي، وصرّح فيها اشتياقه إليه، كما ذكر فيها النبي صلى الله عليه وسلم وخاصته الأعلام، والتحريض على اتباع الأولياء وجهيم. وذكر فيها مكانة الشيخ أبي الفتح بين المشايخ، وأولاده الأنجاب البررة. وقد توالى بقية القصائد على هذا المنوال.

قصيدة "كوثر الأمداح والتفادي": هو ديوان يحتوي على القصيدتين اللتين تقعا على ٨٩ بيتاً، من بحر الكامل المجزوء، بتاريخ (٢٧/٣/٢٠٠٦م). استهل فيها بمدح الشيخ اليرواوي، واشتياقه إليه. ثم انتقلت به ذكريات الماضي نحو المدن التي التمس فيها علومه يسرها واحدة تلو أخرى مع ذكر ما اجتني فيها من العلوم، ثم تخلص إلى تعداد مناقب شيخه اليرواوي. وتلي هذه "قصيدة الأشواق للمشتاق" والتي يظهر فيها شدة شوقه وغرامه نحو هذا الممدوح، وما يشتعل في قلبه من نار الهوى والمحبة. ثم عدل إلى ذكر آل الشيخ وما يتجلى فيهم من المناقب.

قصيدة "العقد الفريد": تحتوي القصيدة على تسعة وتسعين بيتاً، دالية القافية من بحر الرجز المجزوء، (١٤/٧/٢٠٠٠م). مدح يسرد فيه أسماء أبناء الشيخ أبي الفتح اليرواوي على حساب طبقاتهم وأجناسهم.

قصيدة "منتهى الوطر" هي قصيدة نظمها الشاعر في مدح الشيخ اليرواوي، كانت رائية القافية من بحر البسيط، وتقع في ١١٩ بيتاً، نظمها يوم (٢٤-٦-١٤١٧هـ). نوّه فيها الشاعر بسجايا الممدوح وخصاله الكريمة، وأشاد فيها منزلته العلمية ومرتبته في الطريقة التجانية. كما تجلّى في القصيدة وصف زاوية الممدوح وأصحابه وتلاميذته.

قصيدة "القطوف الدانية" وهي فائية من بحر البسيط، متوجة بقوله: "أسألك مرافقتك في الجنة"، وتقع في عشرين بيتاً، وتاريخ نظمها (١٠-١٢-٢٠١١م). هي مدحة أنشأ الشاعر يصف فيها شوقه وحنينه نحو الممدوح، وريح تجارته في مصاحبة الممدوح أملاً رضاه وراجيا ضمانه، وسائلاً مرافقته في الجنة الخلد.

ومهما يكن من أمر، فهذا غيض من فيض ما قرضه الباغوي في مدح الشيخ أبي الفتح اليرواوي، والذي فتح له الطريق لنيل المكانة والمنزلة في منطقة دورن باغا عامة ولدى الشيخ أبي الفتح اليرواوي عامة.

شاعرية تکر الباغوي

ومن الجدير بالذكر أن الشاعر تطرق أغراضاً شعرية كثيرة التي تؤكد تمكنه في الصناعة الشعرية وإلمامه في الفنون العربية. ومن الأغراض التي دار في فلكها، وقرض في ساحتها الشعر ما يلي: المدح، والرثاء، والوصف، والشكوى، والعشق والحنين، والحكم، والاستعطاف، والعتاب، والألغاز، وغيرها مما قرض على صعيد المناسبات. فأما المدح لدى الشاعر فهو أكثر الأغراض قرصاً وأوفرها ذكراً وأجلها مرتبة كونه الغرض الذي كرس فيه جهده لمدح شيخه وفاء واحتراماً. وسيورد الباحث لمسات مما قاله الشاعر في هذه الأغراض المتباينة:

المدح: كان فن المدح هو الفلك الذي تدور حوله عاطفة الشاعر الباغوي، وحوضه الذي يغترف منه، فكان جلّ قصائده في مدح الشيخ اليرواوي، وله قصيدة رائية عنونها: المسماة "منتهى الوطر في مدح الشيخ أبي الفتح"، والتي تقع في مائة وتسعة عشر بيتاً (١١٩) على بحر الكامل. وهي من طلائع القصائد التي قالها في يبرزشوقه إلى الممدوح، ويصف بيته بكعبة المحتاجين ودوحة للعلم والمعرفة وملاذاً آمناً لمن افتدح، كونه القطب الذي جمعت فيه الشرف والمكارم. ومطلعها:-

لَمِنَ الدِّيَارِ بِمُنْتَهَى الوَطْرِ * مَاوَى المَعَارِفِ مُنْتَهَى الظَّهِرِ
دَارُ لِقْطِبِ جَامِعِ القَدْرِ * ذِي الفَتْحِ مَنْ هُوَ سَاطِعُ الفَجْرِ

ومقطعيها:

وَلَنَا جَمِيعًا وَالَّذِينَ مَضَوْا * لِسَبِيلِهِمْ وَلِمُنْتَهَى الْوَطْرِ^{١١}

وأما في تائيته التي عنونها "بحر الأمداد الإلهية" التي تقع في تسع وتسعين بيتاً، وهي على بحر الطويل، استهلها بمطلع تقليدي يعلن فيها الحب الجم للشيخ اليرواوي مع تنويه بما يقاسيه من العشق والغرام تجاهه، فذكر الديار لأصحابه فوقف واستوقف، فبكى واستبكى، مفيضا دموعه وفاءً منه وقضاءً لما استدان، يقول في مطلعها:

شَمَمْتُ أَرْجَاً مِنْ دِيَارِ الْأَحْبَةِ * فَجِدُّوا صَحَابِي ثُمَّ عِدُّوا لِنُزْمَةِ

دِيَارِ حَبِيبٍ لَا أَرَاهَا بَعِيدَةً * فَعُوجُوا بِنَا يَا قَوْمَ صَوْبِ الْمَدِينَةِ

وَنُطْفِي نَيْاراً فِي الْفُؤَادِ تَوَقَّدَتْ * بِفَيْضِ دُمُوعٍ مِنْ عُيُونِ قَرِيحَةٍ

ومقطعيها:

وَصَلَّى إِلَهِي لِلنَّبِيِّ وَآلِهِ * شَمَمْتُ وَرَبِّي مِنْ أَرْجِ الْأَحْبَةِ^{١٢}

الرثاء: للشاعر في المرثي قصائد رثى بها والده ومشايخه، منها ميميته التي قالها في والده المرحوم الشيخ هارون، يبرز فيها تغير الأجواء عيشه من محيط الترح والفرح إلى سيول الحزن والقلق لفقد والده وأستاذه ومرتيه، مشيراً إلى أن كوكبه الدرّي قد أفلّ وغاب عن مرآه، ثم استطرد بقوله تعالى: "كل من علمها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"، ومطلعها:

قَوَا أَسَقَى عَلَيْكَ أَيَا إِمَامٍ * حَبِيبُ اللَّهِ هَارُونَ الْهُمَامِ

تَكَدَّرَتِ الْبِلَادُ لَهَا قِتَامٌ * صُرُوفُ الدَّهْرِ يَعْقُبُهُ الظَّلَامُ

لِفَقْدِ أَبِي أُسْتَاذِي غَمَامِي * غُرُوبُ الشَّمْسِ يَعْقُبُهُ الظَّلَامُ^{١٣}

وللشاعر مرثية رثى بها شيخه أبي الفتح يحيى فيها المفاجئة التي صادفته من غياب هذا الكوكب الدُرِّي، ووالده الرُّوحي، بألفاظ يحكمها النأي، والتأين، والتغزية. ومعان تتقطع به الأمعاء لهذه المفاجئة التي تكدّرت البلاد لأجله، وكادت الجبال أن تخزّ لفراقه، يقول فيها:

وَلِلَّهِ حَمْدِي إِنَّ رَبِّي هُوَ الْحَقُّ * فَصَبْرًا بِمَا يَقْضِي وَأَحْكَامُهُ رَفُوقُ
تَغَيَّرَتِ الدُّنْيَا كَأَنَّ غَيَّرْتَ لَنَا * تَطَاوَلَ لَيْلُ الْهَمِّ وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ
تَصَبَّرْتُ حَتَّى عَيْلَ صَبْرِي وَأَحْرَقْتُ * نَيْارَ افْتِرَاقِ قَلْبٍ مَنْ لَأَ لَهُ طَوْقُ
لِفَقْدِكَ يَا سِرَّ الْوُجُودِ وَرُوحَهُ * أَبَا الْفَتْحِ يَا غَوْثَ الْعِبَادِ لَكَ السَّبْقُ (الطويل)

الوصف: لم يكن الوصف من الأغراض التي يهتم بها الشاعر قياساً لمدائحه- فكان كالراعي يرعى حول الحمى فوق فيه صدفة- فوصف أهالي برنو بالثراء والكرم، كما وصف أراضيها بمعقل للتجار ولما تحتل بها من الأرزاق في بحرها وبزها، ومقصد للعلماء ودوحة للعلم والمعرفة لما من الله عليها من حفظة القرآن، وينطوي هذا في داليتها المسماة بـ"البرناوية" التي تقع في خمس وثلاثين بيتاً، ومطلعها:

شَاقَتَكَ بَرْنُو عَقِيلَةَ الْ * أَتْرَابِ رُغَمِ الْحَسَدِ
وَسَبَبْتُ فُؤَادَكَ أَرْضُنَا * بَرْنُو النَّعِيمِ لِيُورِدِ
ومقطعها: وعلى النبي وآله * صلوات ربّ الأعبدة^٥ (الكامل المجزوء)

الفخر: للباغوي هائيته في الفخر وهي على البحر الطويل، قرضها مفتخراً بشيخه بأنه أدوم أقطاب عصره في هذه المنزلة وأقربهم نسبة إلى سيد الخلق، كونه الذي فتح للناس أبواب الخير والهداية، حتى صار منزله معقل للعلماء ومأوى للمريدين يغترف منها العلوم والتصوّف من مناهلها العذبة متفيتين تحت دوحته الشامخة. يتحدى معاصري الشيخ بهذه المناقب التي قلّ توقّرها في مشايخ عصره. ومطلعها:

إِذَا قِيلَ مَنْ أَبْقَى عَلَى عَرْشِ قُرْبِهِ * وَأَدْوَمُ فِي الْأَقْطَابِ فِي فَيْضِ بَحْرِهِ
نَقُولُ أَبُو الْفَتْحِ الَّذِي كَانَ فَتَحَهُ * مَعَ النَّصْرِ مِنْ رَبِّي وَأَحْمَدُ خَلَقَهُ

ومقطعها:

أَتَاكُمْ أَخُو الْإِمْلَاقِ لَمْ يَرْجُ غَيْرَكُمْ * رِضَاكُمْ هُوَ الْمَأْمُولُ يَفْتَحِيهِ (الطويل)

الغزل: من الأغراض الشائعة لدى الصوفيين يتغزلون في ذات الله العليا لما يتجلى في أعماق قلوبهم من حبّ إلهي خالص، وجذب نفسي غارق، حيث تفيئ النفس إلى حضرة خالقها، كما تحقق ذلك في المديح النبوي. ففي داليته "كوثر الأمداح والتفادي" من البحر الكامل المجزوء، تغزل الباغوي بشيخه حباً وعشقاً وغراماً، فوصفه بالطبي مغدقة بطيب العيش في الرُّبَى، مكهولة العين ومرتاحة البال في رياض مُؤَمَّنَة تطوف بين العراك لمرد يانع، وهذه الرياض الناعمة المؤمَّنة هي المدينة الفتحية في يَرَوْ "ميدغري" أي منزل الشيخ. يقول في مطلعها:

مَغَى الْحَبِيبِ مَدِينَةٌ * فِي يَرَوْ عَيْنُ الْمُوْرِدِ

أَشْتَأَقُ ظَبِيًّا فِي الرُّبَى * بِرَبِيعِ عَيْشِ أَرْغَدِ

مَكْحُولٌ عَيْنٌ يَخْتَلِي * فِي الرُّوْضِ دُونَ مُشْرِدِ

وَيُنُوْشُ مَرْدًا يَانَعًا * تَحْتَ الْعَرَكَ الْأَمْلَدِ

أَبْغِي الْقَرَى وَبِكُوْثِرِ الْ* أَسْرَارِ كُنْتُ كَفَرَقْدِ

ومقطعتها:

بِالْحَمْدِ أَخْتِمُ رَبَّنَا * فَاخْتِمْنَا لَنَا بِتَشْهَدِ (الكامل المجزوء)

العتاب: كان العتاب من الأغراض التي تناولها الباغوي في رأيته المسمات بـ "الأعجوبة" يعاتب فيها رجالاً فاضوا عليه طوفان الحقد والحسد، وأقروا تجاهه أعينهم السامة وسلاسلهم الضارة لما يعلن من غرامه وفنائه حباً وأجلالاً للشيخ، فَتَنَكَّرُوا لَهُ لِيَنْقَطِعَ بِهِ الْوَصْلُ مَعَ الشَّيْخِ. واستهل القصيدة قائلاً:

عَجَبًا لِمَنْ فِي حُبِّهِ غَرُّ * أَوْ فِي مَعَاقِدِ وَدِّهِ غَدْرُ

وَيُرِيدُ وَصْلًا بِالْحَبِيبِ وَذَا * عَيْنُ الْخَنُونِ وَحَقَّهُ هَجْرُ

وَلَهُ سَرَابُ الْقَاعِ ذَلِكَ لَهُ * قَدْ خَابَ إِنَّ سَرَابَهُ شَرُّ

إِنَّ السَّفَاهَةَ كَأَسْمِهَا أَبَدًا * هَلْ بَعْدَ أَلْفِ خِيَانَةٍ عُدْرُ

ومقطعتها من إزبْ جَدِّكَ فَاسْقِ خَادِمَكُمْ * مَا لَيْسَ يَنْفَعُ شَيْخَنَا بَدْرُ (الكامل)

الشوق والغرام: من الأغراض التي تناولها الشاعر الشوق والغرام، وداليتها التي تسمى بـ"خمرة العشاق" برهان قاطع على شدة الشوق والغرام الذي يعانيه الشاعر، وما انسكب على خديه من سيول الدموع لما يتعجعج في قلبه من اشتعال نيران المحبة والمودة. فَرَطَبَ لسانه بذكره، والتزم فكره بطيفه، حتى ودّعه النوم في ليلاليه. ومطلعها:

وَلِلَّهِ حَمْدِي بِهِ أَبْتَدِي * وَلَا أَنْتَهِي ذِكْرَ مَنْ أَجْتَدِي
جَرَّتْ أَدْمُعِي لَمْ يَكُنْ عَنْ دَدٍ * تَجَدَّدَ حَيِّي إِلَى مُرْشِدِي
لِي الشُّوقُ فِي الشَّيْخِ لِي عَشْقُهُ * وَذِكْرُ وَفَكْرُ بِهِ سَرْمَدِي
نَفَى النَّوْمَ حُبِّيهِ عَنْ قَيْسِهِ * وَلَيْلَاهُ زَادَتْهُ فِي المَوْعِدِ

ومطلعها: سَلَامَيْنِ مِنْ أَوَّلِ الأَعْبُدِ * إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ لَمْ تَنْفُدِ (الكامل المجزوء)

الشكوى: ومن الجدير بالذكر أن للباغوي هائية عنونها بـ"رسالة اليتيم" يشكو فيها بعد ديار الممدوح مع غرامه المدمن لِلْحَاقِ بها، ووقف متحيراً يُرَدِّدُ ذكر الممدوح ويستهدي عن دياره كالحمامة المشردة تغرد على الأغصان طلباً لرفيقها. كما أعلن فداء نفسه لمن بَشَّرَهُ برضى الممدوح له، معبراً لو صدَّ عنه أبواب الوصال سيلتزم مهما يقاسي الشدائد لأن اجتناب الممدوح سيكون دُلاًّ له. ومطلعها:

أَبْكِي عَلَى بُعْدِ الدِّيَا * رَأَوْدُ لَوْ تَبَدُّوا قِبَابُهُ
فَأَخُوا الغَرَامِ مُغَرِّدٌ * فِي ذِكْرٍ مِنْ فِيهِ انْجِدَابُهُ
مِثْلُ الحَمَامَةِ فِي الغُصُوبِ * نِ عَلَى الهَدْيِ بَدَا اغْتِرَابُهُ

ومقطعها: هَذِي الرِّسَالَةُ لِئَيْتِي * بِمِ إِلَى الكَفِيلِ هَمِي رِبَابُهُ (الكامل المجزوء)

الاستغاثة والتوسل: لقد خصَّ الباغوي لهذا الغرض لاميته يتضرع بها إلى الله ويتوسل بأسمائه الحسنی وصفاته العلیا أن يحقق له مناه ويقبل له رجاءه، استناداً بقوله "أجيب دعوة الداع إذا دعاني". ومطلعها:

أَيَا رَبِّ يَا ذَا الخَلْقِ وَالْأَمْرِ مَنْ لَهُ * خَزَائِنُ كُلِّ الخَيْرِ مُعْطِ لِمَنْ سَأَلَ
وَيَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا فَرْدُ مَنْ لَنَا * سِوَاكَ عَظِيمِ المَنْ يَا خَيْرَ مَنْ بَدَّلَ
أُنَادِيكَ بِالدَّاتِ العَلِيَّةِ وَبِاسْمِهَا * وَأَمْرِكَ بَيْنَ الكَافِ والنُّونِ لَمْ تَزَلْ

تَقَبَّلْ بِفَضْلِ مِنْكَ سُؤْلِي وَالرَّجَا * لِقَوْلِكَ فَادْعُونِي أَحِبُّ لِلَّذِي اَمْتَلُ
ومقطوعها: عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ ثُمَّ سَلَامُهُ * صَلَاةً لِفَتْحِ الْبَابِ مَا اُنْسَدَّ وَانْقَفَلَ (الطويل)

الحكم: كما له الحكم بعض الأبيات ينوّه فيها أهمية حواس الخمس وفوائدها للإنسان وحكمة التي اقتضت إلى صنعها، وهي صنع الله الذي أتقن كل شيء، يقول فيها:

حَوَاسِنَا حَمْسٌ حَقِيقُ الْعَيْنِ * نَسْمَعُ بِالْأَذْنِ نَرَى بِالْعَيْنِ
نَذُوقُ بِاللِّسَانِ أَنْفُ الزَّيْنِ * لِلشَّمِّ وَالْكَفِّ لِلْمَسِ اللَّيْنِ

وأضفى في أبيات أخرى ألا يغتَر المرء بالصبي أو الغنى لأنهما غريبان زائلان مهما بلغ يفاعاة الصبي أو الشبابة كما تهجر الأزراق مهما جُمعَ وَاكْتَرَتْ. وأما العلم فهو شاف للأمراض من الشبابة إلى الشيخوخة، كما أنه شفاء للغنى والفقير. وستدوم فوائده في الإنسان مهما بلغ. يقول في ذلك:

الصَّبِيَّ وَالغِنَى غَرِيبَانِ جَاءَا * مِنْ إلهي إِلَيْكَ مَحْضُ الْعَطَاءِ
يَسْتَعِدَّانِ لِلرُّجُوعِ إِلَيْهِ * فَاطْلُبِ الْعِلْمَ فِيهِمَا تَشْفَ دَاءِ
إِنَّ حِفْظَ الْعُلُومِ لِلشَّابِ سَهْلٌ * وَكَنْفُسِ لِلشَّيْخِ فِي صَفْوَمَاءِ ٢٢

وعلى هذا الضرب تتجلى أفكار قصائد الباغوي، يتناولها بأغراضها المختلفة، منتقلا من قالب إلى آخر يعبر ما تستضيفه نفسه، مصطفيا بأفكار ومعان متسلسلة في قالبها ومتناثرة في مغراها.

الخاتمة: تناولت المقالة عرضا سريعا عن إسهام الشاعر الشيخ محمد تکر بن هارون الباغوي في فن المدح خاصة والأدب العربي النيجيري بأغراضه المختلفة عامة على ضوء قصائده المديحية، فدرس الباحث سيرة الشاعر وعوامل تكوينه الأدبي، ثم انطلق إلى دراسة نموذجية مشيرا إلى منهج الباغوي في بناء القصيدة من مطلعها إلى مقطوعها، واستعان الشاعر بعاطفته الجياشة في تنظيم أفكاره بأسلوب وضآء مع الإنتظام بجوانب الصور البديعية الرائعة. الأمر الذي يظهر صدق عاطفة الشاعر من جهة ولوحة فنية داخرة تعبر عن منزلة الأدب الإسلامي النيجيري. ومن النتائج التي توصل إليها الباحث ما يلي:

- لقد أنتجت منطقة كبي طبقات مختلفة من العلماء والأدباء الذين خدموا العربية والأدب منذ زمن الجهاد الإسلامي بصكتو إلى اليوم.
- إسهام الشيخ محمد تکر الباغوي للشعر العربي النيجيري خارج منطقتة الأصلية.
- ولعل الباغوي كان من الشعراء المحافظين الذين لا يلهثون وراء الأشكال الجديدة بمجرد ظهورها، ويظهر ذلك من خلال الأعرض الشعرية التي تناولها.
- استطاع الباغوي أن يتناول الموضوعات المطروقة بفنية عالية، ولا يرجع تفوقه في ابتكار المعاني التي لم يسبق إليها، وإنما في طريقة تصويرها بأساليب تملك القلوب.

الهوامش والمراجع

- ١- نسبة إلى دورن باغا، قرية تقع على ضفة بحيرة تشاد في ولاية برنو، لقد اشتهرت اهالي هذه القرية بصيد الأسماك.
- ٢- محمد تکر الباغوي، أرجوزة في تاريخ ولادة الشاعر، ص: ١
- ٣- المرجع نفسه، ص: ١
- ٤- المقابلة مع الشاعر في منزله ببلد كَلْغُو، وَلَايَةُ كَبَّ، ٢٠١٥/٢/٣ م
- ٥- المشافهة مع الشاعر في بيته يوم: ٢٠١٥/٢/٣
- ٦- المشافهة مع الشاعر في بيته يوم: ٢٠١٥/٢/٣
- ٧- مهدي سأتي صالح، الجذور التاريخية لحضارة الهوسا وانعكاس ذلك على حركة الشيخ عثمان بن فودي، مقالة نشرت ضمن بحوث العلمية للاحتفال باشيخ عثمان بن فودي، ص: ٧
- ٨- محمد الحاج ميدغو، ديوان حدائق ذات بهجة للشيخ أبي بكر غنيي البرناوي: دراسة أدبية، بحث قدم ألى غسم اللغة العربية جامعة عثمان بن فودي، صكتو، لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية، ٢٠١٣ م

- ٩- مشافهة مع الشاعر في منزله يوم الثلاثاء ٢٠١٥/٢/٣
- الباغوي، قصيدته فيض الرباني في مدح الشيخ أبي الفتح البيرواي، وتحتوي على ٣١٣ بيتاً، ٢٠٠١م، ص: ٦٥
- الباغوي، قصيدة "منتهى الوطر في مدح الشيخ أبي الفتح البحر، وتحتوي على ١١٩ بيتاً، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م؛
- الباغوي، قصيدة "بحر الأمداد الإلهية في مدح الحضرة الفتحية"، عدد أبياتها ٩٩ بيتاً، ٢٠٠١م؛
- الباغوي، مرثيته لوالده، ص: ١
- الباغوي، قصيدة "غاية الرحمة في مرثية قطب الرحمة"، وتحتوي على ٥٠ بيتاً، ص: ١
- قصيدته "البرناوية" وعدد أبياتها ٣٥ بيتاً، بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٤٢٧هـ / ٢٧ من إبريل ٢٠٠٦م؛
- الباغوي، قصيدة قالها يوم مولد فاس، بـ"مافاً"، ميدغري، بتاريخ ١٢/٣/١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م؛
- الباغوي، قصيدة "كوثر الأمداح والتفادي" بتاريخ ٢٧ من صفر، ١٤٢٧هـ ٢٧-٣-٢٠٠٧م؛
- الباغوي، قصيدته "الأعجوبة" تقع على ٢٦ بيتاً، بتاريخ ٢٥ من رجب، ١٤٢٠هـ / ٥ من نوفمبر، ١٩٩٩م؛
- قصيدة "خمرة العشاق في مدح طيب الأخلاق" وتقع على ٨٨ بيتاً، ٧ من شهر رجب، ١٤٢١هـ
- قصيدة "رسالة اليتيم إلى روح الكفيل اليتيم" وتقع على ٨١ بيتاً، بتاريخ ١٢/١١/٢٠٠٦م؛
- الباغوي، قصيدة "منتهى الأمل" وتقع على ١٩ بيتاً، بلا التاريخ؛
- الباغوي، من حكمه، بتاريخ ١٢ من ربيع الثاني، ١٤٢٣هـ